دراسة تطبيقية في مادة مقاربات نقدية معاصرة

التطبيق الثاني: النقد البنيوي

إعداد الأستاذ: الوافي سامي
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي–

مكونُ السردِ في رواية نُثار الأجساد المحروقة لواسيني الأعرج

مقاربة بنيوية

تمهيد:

يبدأ نصُّ: جسدُ الحرائقِ، بوقفة عنوانها (وطن آخر) غلقت كمتتالية من الملفوظات السردية كلّ أبواب الأمل، عاكسة حالة الانحطاط واللامسؤولية التي يتخبط فيها الوطن المسروق (جزائر ما بعد الاستقلال)، يقول رشيد موضحا لصديقه كريم موقفه وسبَب قراراه الهجرة ومغادرة الوطن: «الأرض التي حلمنا بها سُرقت بانقلابينِ، الأول على الحكومة المؤقتة، خاطرهم ضيق، لم يتحملوا أن يحكمنا مدنيون لسنة واحدة، قلنا وقتها إخوة، لم يتعلموا كيف يديرون كفة وطن، سامحناهم وكان يجب أن نحاربهم بقوة؛ لأن كل شيء تأسّس لحظتها، سرقوا منا أوّل حكومة مدنية وعوضوها بشيء لا ملامح له مطلقا»[6]، رأيه هذا يحمل دلالات رمزية مُكثّفة، تضمنت بين طياتها رسالة واضحة توحي بشيئين: الأول يخصُّ الوضع المتردي في الجزائر الأمل / فرنسا الحُلم، والاستغلال الذي تعاني منه الذوات المتأزمة (كريم / رشيد / مريم) كممثلين للمجتمع المقهور، بسبب السلطة القهرية المفروضة عليهم، والثاني يخصّ الأمل المنشود، والخلاص الذي سيكون من حليف فئة واعية مثقفة تعاني الظلم والتهميش في وطنِ مسقطِ الرأسِ، ستحاول قلب الموازين بإرجاع الوضع لحالة التوازن (قرار الهجرة إلى فرنسا، وتحقيق الحُلم المنشود، قبل تعقّد وتأزم القوانين التي ستُنظّمُ الهجرة لأوروبا) يقول كريم: «كان رشيد يمقت القوانين الجديدة، لأنها تحرمه

من إمكانية كان يرى فيها سلامته، لقد بدأ يفكر بجدية بمغادرة وهران»[7]، إذ ستمثّل فرنسا بالنسبة لهم الحلّ والأمل والخلاص، لتأخذ الأحداث معها مجراها في اتجاه خلق التوازن الباعث للأمل والحياة والحب.

لتأتي باقي فصول الرواية تباعاً وهي مشُحونة بأحداث متشابكة، اعتمد في استحضارها السارِدُ على الذاكرة والاسترجاع، تبدأُ بالمكان: باريس "شاطني ملابري" (Chatenay Malabry) عائدة إلى مسقط الرأس مدينة وهران "حي بيري" (Cité Perret) لما يمثله المكان بالنسبة للشخصية المركزية كريم (كريمو) من أهمية ودلالة رمزية، و"الشخصية الرئيسية فيه تبحث عن اتصال متكامل بعالم منسجم مع نفسه"[8]، تَجسّد في المهجرِ مفرّا ووجهةً (باريس)، لقول رشيد مُعلنا: «فرسان الحلم قادمون لغزو المدن الزرقاء !»[9] والسبب كان سرقة الوطن / الحلم والطموح، الذي ترك أثراً عميقا في نفوسهم لما حمله الوضع المتأزم من هموم، تعلقت بذكريات الماضي ورهانات الحاضر، فهم يرون في الوطن وأحداثه "ما يتقارب والتراكمات التاريخية، التي غالبا ما تسيطر بكابوسها على فيض الذاكرة"[10] المشحونة، وبهذا بقيت الذات (كريم) بمواقفها الرافضة للواقع المتردي في ركنين اثنين من حياته: الماضي المرتبط بجزائر ما قبل الاستقلال (الثورة التحريرية)، والحاضر المرتبط بالوطن المسلوب / المسروق من قبل ورثة الثورة (الخونة)، لما يُمثله من مراوغة وتعقيد، كقول رشيد شارحا: «المشكلة يا خويا كريمو أنهم تقاسموا البلاد ولم يعد لنا مكان حتى في البؤس»[11]، وقول كريم ناقما: «لقد أغلق ورثة الثورة والدم كل الأبواب ورائهم، والله لو يعود الشهداء سيندبون حظهم ويطلبون من الله أن يعيدهم إلى الدنيا، وسيكتفون بالعيش مع أولادهم وزوجاتهم الذين يتّمُوهم بغباوة في وقت مبكر، ولن يطلبوا غير ذلك»[12] لنجد لردّه هذا دلالة واضحة على عدم رضاه عن حال الوطن المسلوب.

لتتطور الأحداث متأرجحة بين حالة التوازن واللا توازن، عامدا السارد فيها إلى إعطاء الكلمة لكافة شخصيات الرواية، بتنوعها واختلافها، كُلٌّ حسب فاعليته في الحكي، وهذا "الرهان على التعدّد في الشخصيات يسعى إلى إبراز صراع بين رؤيتين للحياة"[13]، الرؤية الأولى ممثلة في ذوات اجتماعية مثقفة تُعاني، رغم أحلامها وطموحاتها ورهاناتها على الواقع، لتحقيق موقع لها في عالم قاسٍ (كريم/ رشيد/ مريم)، في حين الرؤية الثانية تمثل السلطة القهرية التي تسعى للحفاظ على مكانتها ومصالحها بكل السبل، تتجسد هنا في شخصية الحاج المكي (ميكي) مالك مراكب الصيد ومسؤول الميناء المُضطهِد للعمال البؤساء والمُستغِلّ لهم، يصفه وأمثاله السارد بقوله: «هم هكذا دائما ... كالقمل والصيبان عايشين بدم الريسان»[14]، فمن خلال هاتين الرؤيتين المتعارضتين سـ"تتشكّل داخل النصّ ملامح الشخصيات وتتضح بنياتها"[15]، وانطلاقا منهما تصبحُ شخصيات الرواية فاعلة، فنجد مثلا الذوات (كريم/ رشيد/ مريم) شخصيات مثقّفة "مُغامرة، تتُوق إلى تحقيق عوالم خاصة بها، ولذلك يحوز كل منهما نصيبه من الحلم، ويتفرّد بطريقته الفردية للوصول إليه"[16].

والملاحظ على البرنامج السردي الرئيسي في الرواية، أنّه يقدّم شخصيات مترابطة فيما بينها بعلاقة الطموح والمغامرة، باعتبارها تدور في فلك البطل كريم (كريمو)، وعشيقته مريم، وصديقه المثقّف رشيد، وقدور الكومينيست أحميدا الساندیكا، عبد الصمد، موكا، دومينو، الجيلالي (جيل)، عبد القادر (كادار) رفاق الشحن في الميناء، ووحدات الحديد والصلب، ووحدات السكك الحديد، وفلاحوا التعاونيات، وبعض رجال الجمارك، في حين نجد شخصيات ضدية عديدة، كشخصية الحاج المكي (ميكو)، خادمه الأعرج عكيكة، فاطمي الرفّاد (العتّال)، رئيس البلدية، عمال الوحدات المُسيّرة ذاتيا، مسؤول خلية حزب جبهة التحرير الوطني في الميناء، المثليّ (الشاذّ) حليليفة، صديقته فاطمة، الطالبة خديجة، صديقتها فرماشة، لما تمثّله من ذوات صراعٍ ضد مصالح الذوات الخيّرة، (السعي وراء المنفعة وحب التسلّط)، لتُعتبر حاجزاً أمام تطلعاتهم وطموحاتهم، رغبة في إذلالهم واستغلالهم، والسيطرة عليهم خاصة بقراراتهم السلطوية الجائرة، خاصة عندما احتج عمال الميناء وعلى رأسهم رشيد (المتحدثُ باسم العمالِ)، مطالبين بحقوقهم المادية والمعنوية تحت لواء نقابتهم العمالية، وفضّهمْ لتجمهرهم واعتصامهم باستخدام القوة، ومن ثمّ إصدار قرارات تأديبية، يقول رشيد واصفا الوضع: «هذا الصباح لم يكن كغيره من الإصباح، الشوارع رحلت من جذورها تجرُّ وراءها صراخ الجوع والاحتجاج والغضب، فشلت المظاهرة ... اعتبرنا عمّال الوحدات المسيّرة ذاتيا، ورئيس البلدية، ومسؤول خلية حزب جبهة التحرير الوطني في الميناء، بأننا من بقايا حزب فرنسا، وأننا كنا نخدم لمصلحة موسكو، وأنّ وراءنا الأممية الشيوعية، وأنّ النازية الجديدة هي التي تموّلنا، كنا كلما سمعنا ذلك نضحك، لأن أغلبنا لم يكن يعرف ما هي الأممية الشيوعية، ولم يسمع في حياته بماركس أو إنجلز، أو حتى لينين أو ماو تسي تونغ، إلاّ عرضا أو من أفواه الطلبة المتربصين في الشركات الوطنية، وفي الميناء.

لم يكن إضرابنا إلاّ الهزّة الأولى، لكنه عندما كَسرَ الحزب والأمن إضرابنا وتفتيته من الداخل، أصدر الحاج ميكي قرارات ألحّ على تطبيقها فورا، بعد أن طلب من عكيكة قراءتها بصوت جهوري أمام الملأ:

– حفاظا على المصلحة العُليا للمدينة والعمال، ومراعاة لتنظيف البحر من الحشرات الحمراء المؤذية والهالكة للزرع والضرع، صدر ما يلي:

- فصلُ قدور الكومنيست لتلاعبه بمصائر العمال، ولمواقفه المعادية للمصلحة الوطنية.
- ترقية فاطمي الرَّفادْ، لاستماتته في تشتيتِ صفوفِ المغرضين سيحفظ له التاريخ والوطن والدين الحنيف والشهداء، جُهدُه العظيم هذا لخدمة الأمة.
- بالمقابل سيتم طرد كلّ من تسبّب في الشغب، وهم يعرفون أنفسهم وعلى رأسهم رجال النقابة المزعومة.

تحيا الجزائر، والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار»[17] .

الملاحظُ على شخصية كريمو الرئيسية هنا أنها "تصْدُر عن رؤية صارمة ومنسجمة مع نفسها"[18]، لأنها تُمثّلُ الخيط الرابط بين جميع أحداث الرواية وبقية شخوصها، تقول مُعبرة عن طموحها المسلوب: «كنت أحلم أن أحكي لأولادي سِيَرَ أجدادهم الذين احترقوا من أجل هذه الأرض، أن أعطيهم كلّ حبي، وأعلّمهم ككيف يقفون كلّ صباح، وينشدون النشيد الوطني، أُحفّظهم كلّ الأناشيد الوطنية التي علّمها لي والدي، ونشيد الأممية التي حرّرت الشعوب من الطغيان والسيطرة، وأرافقهم صباح كل يوم سبت إلى حديقة الألعاب، في أجمل مدينة، نبنيها كما اشتهيناها، واشتهاها الأوّلون عليّ الآن أن أقبل بكل هذه الخسارات»[19]، لنرى في كلامه هذا الأمل المنشودَ والعجزَ المَحسُوس، في الوطن الذي سُرق من قبل أشخاص خونة كذبوا على الشعب وعلى الله وعلى التاريخ (ورثةُ الثورة).

امتلك كريم (كريمو) هنا أهلية المعرفة والعلم التي مكّنته من تشريح الواقع وكشف زيف المسؤولين (ذات واعية)، غير أنّ مَن "يمتلكُ هذه الشجاعة الفائقة لابد له أن يدفع ثمن شجاعته"[20]، وهذا بالفعل ما حصل، فقد عانى كريم التهميش والبطالة والحرمان هو وحبيبته مريم، رغم مركزهما العلمي، وحصولهما على شهادة ليسانس في الأدب واللغة العربية، تقول مريم: «... ألم يقولوا إنّ البلاد في حاجة إلى الإطارات المُعرّبة، ها قد اخترنا العربية وأحببناها ومن بعد؟ لم نجد أمامنا إلاّ الفراغ، كوّنونا ليرمونا في حديقة الحيوانات طعما لجوعها، ماذا تفعل بشهادة ليسانس في اللغة العربية؟ أعتقد لا شيء، حتى إمكانية التعليم سحبت من تحت أرجلنا»[21] ليردّ عليها كريم (شاب مثقّف طموحٌ وابن شهيد مُهمَّشٍ) وكلّه حسرة وندم: «سنبحث عن مخرج، وسنجدهُ، ليفرحُوا بهذه الأرض التي يؤكّدون لنا كلّ صباح ومساء أنها ليست لنا، والله لو يعود والدي من دمه سأوقفه عند شجرة الزيتون التي استشهد تحتها، وأصرخ في وجهه: ماذا دهاك؟ ألم يكن من الأحسن لكَ أن تهتم بأولادك وزوجتك التي رمّلتها في سن الثلاثين؟ تركتها لمن؟ لقد استولوا على كلّ شيء يا أبي، وها نحن كما ترى، لا شيء سوى سطوة الفراغ والخوف من مستقبل أصبح غامضا، وسيزداد غموضا إلى أن ينقلب إلى كارثة مدمرة، وحارقة لكل شيء»[22]، والسبب هو التهميش الذي تعرّض إليه، ليحاول مع ذلك خلق عالم بديل مثالي له، في مستنقع القذارة والفساد، للوصول إلى مرتبة عُليا.

إذن فذات كريم تُمثّلُ فئة الإنسان المرتبط بأطره الاجتماعية، لبقاءه "رهين العجز والاستلاب، إن كان سينجو بجلده من الزيف واختراق الضمير"[23]؛ إذ مع انسداد كل السُبل (البطالة واليأس)، ستنقلب حالة التوازن (الطموحُ والحلمُ بوضعٍ أحسنٍ)، نتيجة لضغوطات قوية نفسية واجتماعية وسياسية سُلّطت عليه من قِبلِ السلطة القهرية من جهة، والمجتمع الظالم من جهة أخرى، كونهما يمثلان قوة جاءت لضرب هذا التوازن، وخلق توترات (عدم توفير منصب شغل يحفظ له كرامته كمثقفٍ)، يقولُ

يائسا: «لم تسألنِ مريم عما أفعله، كانت تعرفُ جيدا أن البطالة كانت تأكلنا، وأنّ علينا أن نجد عملا يستر خوفنا من هذه الدنيا»[24]، ليفشل ويحلّ بذلك محلَّ الطموحِ اليأسَ وفقدان التوازن، المُعبّر عنه بالهروب من الواقع، إلى عالم اللاوعي والسُكْرِ كحلّ أوّلي، حيث يقول في حوارية شيّقة مع حبيبته مريم: «تظنُّ أنّ الشراب سيفكّها؟

–أشربُ فقط لأنسى يا مريم، لا وهم لديّ، في قلبك جرحُك من أب تركك تموتين في غابة موحشة، وفي قلبي جرح مماثل لوالد مريم يعيش خيبته السرية بصمت دائم»[25]، ليتّخذ بعدها قرار الهجرة كحلّ أخير، ينقذه من الوضع المنحط.

ومع ظهور صديقه رشيد في بداية السرد، ودعوته له بضرورة التغيير نحو الأفضل(الهجرة إلى فرنسا)، تنقلب الأحداث آخذة مجرى متأرجحا بين التوازن والاضطراب، ليعطينا النصُّ مقطعا سرديا على لسان كريم، يوضح الوضعَ: «أنا ورشيد كُنّا على شفا حفرة من اليأس، كان مجنونا بهوسٍ كان وحده يعرف سرّه، حبّبني في باريس كمن يحبّبني في امرأة، كنت في الحقيقة منكسرا بعمل لم يكن يثير فيَّ أية شهية، كم من مرة شجّعني على غزو باريس، حاول حتى الموت إقناعي بجمالها وحبها للغرباء»[26]، وهذا مشهد يُحْي فكرة الهجرة، في حاضر متغيّر نحو الحرَكيّة، والتطور المستمر، ليبدأ معه حوارهُما وفق نمط جدليّ، تتباين فيه وُجُهاتُ النظر بين مقتنعٍ بالهجرة إلى باريس ورافضٍ لها، كقول رشيد مخاطبا صديقة كريمو: «مجرد خطوة يا محاينك، لا أكثر، لن تخسر إلاّ بؤسك، لقد تحصلت على الليسانس لتشتغلَ كمستخلف؟ ساعات يتيمة وجائعة، وبلا منصب؟ أغمض فقط عينيك، وأترك نفسك تنساب كمياه الوديان، وسترى كيف ستفتح لك الحياة أبوابها.

–يا رشيد خويا باريس مليحة لأصحابها وليس لنا، فقراء عشنا، وفقراء سيسحبنا الزمن القاسي نحو حفره»[27]، هذا الموقف يُنمّ عن رفض كريم لفكرة الهجرة في البداية، رغم محاولات صديقه رشيد الحثيثة لإقناعه بضرورة الهجرة وفي أقرب وقت ممكن قبل تأزم الأمور وتعقدها، لأن الوضع في الجزائر لا يسُرُّ، خاصة بعد طرده من الميناء وقطع مصدر رزقه الوحيد، الذي يُعيل به ستة أفواه، بعد فشل الإضراب وفضّ الاعتصام، يقول كريمو واصفا المشهد (وضعُ رشيد المزري): «عندما غيّرنا التكتيك، اكتشفت بيته للمرة الأولى، لأول مرة أكتشف رشيد على صورته الحقيقية، في منزله الذي كان يموت بصمت، ستة أولاد، ستة أفواه لا شيء يملأها إلاّ الانتظار والصراخ: "يمّا ... خبز ... جعت ... يمّا ..." ستة أجسام جائعة، اثنتا عشر عينا تترقب الذي يدخل ويخرج، ترى الصغير والكبير، اثنتا عشرة يدا ممدودة نحو الفراغ والقلق، وأمّ ليلى راكنة بالقرب منها كومة من الخيوط البالية، تحيك معاطف شتوية للأولاد، الشتاء على الأبواب ...»[28]، ليأتي صوته مضطربا، ميزته القلق والتساؤل، والسبب "ضربات الدهر المتتالية، وهو غريق في دهشته وحيرته، لا يُدرك ما الحلُّ ولا يعلم بتغير الأمور،

وما أحدثه الدهر بعد عهده"[29] (البطالة)، ليقتنع بالسفر وينتقل بعدها مباشرة إلى باريس (أرض بديلة توفّر حياة كريمة)، رفقة صديقه رشيد، لينقل لنا شعوره وهو يغادر أرض الوطن المسلوب قائلا: «أمشي يعاودني الحزن الغامض مصحوبا بأزيز الطائرة، الذي أصبح يصم الأذنين أشواق سفرتنا الأولى عندما أظلمت الدنيا في عيوننا المتعبة، كنا في الأعالي أنا ورشيد، ولم تعد وهران وجبل سيدي عبد القادر، وسانتا كروز إلاّ مساحات ملساء، ممتدة على مرمى النظر، تُحيطها في الجوانب الشمالية زرقة واسعة، ظلّت تمتد بهدوء حتى التهمت كلّ شيء، ولم تبق إلاّ هي.

–يا رجل افرح شوية، أنسى الهم ينساك، تَذكُرُه يركبك، هذا اليوم يوم عرس وحياة جديدة.

–اشتقت لمريم يا خويا رشيد .

–يا سيدي ... أنت لن تذهب إلى الحرب، كلها أيام قلائل وينتهي الزمن الصعب، وتعود منتصرا نحو مريم، وتتزوجان، تذكر فقط قسوة الحياة والخيبات المتتالية، وستعرف أنك لم تخطئ في خيارك»[30]، لتبدأ في هذه اللحظة المهمة من السرد مغامرتهما في باريس، التي ستمثّل الخيط الرابط بين جميع الأحداث اللاحقة، كمحصّلة شبه نهائية لإحداث التغيير.

فرغم كراهيته للسفر، وعدم رغبته في ترك حبيبته مريم، نجده يوافق على فكرة الانتقال إلى باريس الرمز في الأخير، خاصة بعد كلام صديقة رشيد الذي خفّف الضغط عليه قليلا: «أفهمك جيدا، ولكن أعط لنفسك قليلا من الراحة من مريم، وفكر فيما ينتظرك من فرص الحياة من وراء البحر»[31] لتكون باريس (شاطني مالابري / Chtenay Malabry) هنا نقطة مُحرّكة للأحداث، خاصة وأنّ السارد هنا ركّز على إستراتيجية الفعل التحويلي الآيل إلى تحريك الشخصيات، وفق برنامج سردي خاص، يعطي لكل واحد منهم دوره، لنصل بذلك إلى أنّ الرواية بدأت بحالة من التوازن (الحلم / الأمل / الطموح)، إلى حالة من اللا توازن والاضطراب (الواقع / خيبة الأمل / انهيار الطموح)، يقول السارد متحدثا عن طموح رشيد: «لم يكن رشيد يملك أكثر من عشقه لأرضه، وخيبته التي ظلّ يداري بها حُزنا دفينا، عشق باريس مثلما يعشق امرأة لا شيء في قلبها إلاّ النور ودهشة الطفولة، لم تكن مدينته، كانت وهمه الجميل وقدره القاتل ...»[32] والسبب أن الأرض التي حلُم بها، سُرقت بانقلاب على شرعيتين: (الحكومة المؤقتة الجزائرية، حكومة الرئيس أحمد بن بلة).

انطلاقا من هذا الملفوظ السردي الدال على إستراتيجية (رشيد) في التحكم والتسيير على مستوى شؤون العمل، نصلُ إلى أهليته (كفاءته) المُكتملة واستعداده لتحقيق برنامجه السردي الثاني (الرئيسي)، بعد فشل برنامجه السردي الأول (الضغط على السلطات بالإضراب لتلبية حقوق عمال الميناء) لنلاحظ معه أنّ وجوب الفعل Devoir Faire الذي تبناه كمبدأ، يقترن ضمنيا بالقدرة على الفعل Pouvoir Faire، والمُتَّضحِ كذلك من خلال عدّة ملفوظات سردية، منها قول كريم: «كنا ما

نزال في البلاد، غطاؤنا سماء زرقاء، وفراشنا أرض مليئة بالأحلام والنوار، جاءني رشيد يومها يلهث في غرفتي الضيقة في حي بيري Cité Perret، في بناية عملاقة أصبحت بلا مصاعد منذ السنة الأولى من خروج المعمرين ... سألته وأنا أرى ملامحه الطيّبَةَ قد انزلقت نحو الرمادي: هوّن على نفسك، خذ نفسا قبل أن تختنق العالم ليس بكل هذا الانغلاق ! قال وهو يشرب كأس الماء: يا حبيبي عالمنا بدأ يمشي بالمقلوب، كارثة، الهجرة التي كانت مفتوحة على مصراعيها، وكنّا نأمل فيها كثيرا، أصبحت تُعطى بالقطرة، بل أصبحت شبه معدومة»[33]، فتفكيره بجدية مغادرة وهران بعد فشل برنامجه السردي الأول الذي سعى إلى تحقيقه*، أكسبهُ أهلية تحكّمه في زمام الأمور، خاصة بعد اقتناعه وإقناعه لصديقه كريمو بضرورة الهجرة، كحلّ بديل يضمن لهما عيشا كريما، في قوله: «لم أعد قادرا على التحمّل، سنخلي البلاد ونتركها لهم وليفعلوا بها ما يشاءون، يحرقونها أو يأكلونها، لم يعد شيء يهمني، لقد قتلوا كلّ شيء فينا»[34]، خاصة وأنهما عاشا وسط بيئة شديدة العفونة وموغلة في الجشع والاستغلال، تمحورت حول صراع القوة والنفوذ (السلطة) والمجتمع، لنجد "خطاب النفوذ يحظى بأهمية قصوى، ويلعبُ دورا حيويا في تشكيل ملامح الشخصيات، وبناء أحداث الرواية"[35]، لتبدأ معه مرحلة الاضطراب، التي تقف وراءها السلطة (الدولة، الحزب الواحد "جبهة التحرير الوطني"، البوليس، رجال المطافئ، العسكر)، مُحتلّة مع هذا الوضع عدّة فواعل –كُلٌّ ومركزُه– دورَ المُنفّذِ في البرنامج السردي الرئيسي الأوّل (ضرورة المطالبة بحقوق عمال الميناء المسلوبة، تحت لواء نقابة العمال) بصفته ممثلاً للمجتمع المقهور (عمال الميناء أنموذجا)، عندما قرّرَ شنَّ إضراب عام، للمطالبة بالحقوق، فارضًا بذلك حالة استنفار قصوى على المسؤولين عن قطاع الصيد البحري، لقوله: «هذا الصباح لم يكن كغيره من الإصباح، الشوارع رحلت من جذورها تجُرُّ وراءها صراخ الجوع والاحتجاج والغضب، فشلت المُظاهرة، لكن في المرة الثانية كانت طعنة قاتمة، وحين عاودنا الكرّة، كان يسندنا رفاق الشحن في الميناء، وحدات الحديد والصلب السكك الحديدية، فلاحو التعاونيات، وبعض رجال الجمارك»[36]، ملفوظ حالة الاتصال بموضوع الرغبة (القيمة) هذا جعل الفاعل (رشيد) مرتبطا بعلاقة استتباعية Implication؛ أي أنّ الصلة بين العوامل تعالقية، فوجود الذات رشيد تتطلب بالضرورة وجود فواعل مساعدة، كرفاق الشحن في الميناء: وحدات الحديد والصلب، السكك الحديدية، فلاحو التعاونيات، وبعض رجال الجمارك، ليحتلَّ النقابيُّ رشيد في خضمّ هذا التوترِ موقعا مهمّا، كفاعل منفّذ في برنامجه السردي الرئيسي، الساعي من خلاله إلى إرساء دعائم العدل والمساواة، بالدفاع عن الحقوق الشرعية المسلوبة، وهذه الأسباب لا تخرج في جميع الحالات عن حدود الأهلية (الكفاءة) التي يمتلكها، ليكون توجّهه كالآتي:

–الأهلية (امتلاك التجربة النقابية) ⟵ (وجوب الفعل / وجوب اتخاذ قرار شنّ الإضراب)
(القدرة على الفعل / القدرة على تنفيذ قرار شن الإضراب) ⟵ الأداء (شنُّ الإضراب).

ليكون الإنجاز مبدئيا فقط لصالحه، حين أربكَ الاحتجاجُ الحاج المكّي (ميكو) مالكَ قواربِ الصيد والمسيطر على الميناء، وجعلهُ يبحثُ عن الحلول الدبلوماسية، وغير الدبلوماسية لإنقاذ الموقف وحماية مصالحه من الضياع بخلقه لبرنامج سردي ضديد سيقوّض به الإضراب، ومطالبَ العمالِ المشروعة، لامتلاكه أهلية القوةَ والنفوذَ والحيلة، متبعا في البداية أسلوبا دبلوماسيا (الترغيب والإقناع)، بمحاولة استمال رشيد لصفه، لقوله: «... في اليوم الموالي استقبلنا الحاج المكي مع وفد مكوّن من عشرة صيادين حرفيين، سحبني باتجاهه قبل بدء الحديث، وشوش في أذني وهو يحاول أن لا يسمعه أحد:

–السي رشيد ... وليدي ... أنت خيار الناس وحبيبي، مسؤولية أولادك وزوجتك على رقبتي، قف معي، نحن من عائلة واحدة، أولاد سيدي محمد موسى، فلا تُنكر أصلك وفصلك، وحليب أجدادك، من أجل عصابة من الحفاة والعراة»[37]، ليبدأ معه الوضع المضطرب بعد فشل مسعاه الحِيلي (عدم قبول الاتفاق)، إلى حالة اللا توازن مع رشيد، باستنفار الحاج المكي لعديد المساعدين له، وظيفتهم الوقوف كحائل في وجهه، بغية عدم تحقيق موضوع الرغبة (افتكاك المطالب والحقوق)، لقول رشيد واصفا الوضع: «اِعْتَبَرنَا عمالُ الوحداتِ المُسيّرة ذاتيا، ورئيس البلدية، ومسؤول خلية حزب جبهة التحرير الوطني في الميناء، بأننا من بقايا حزب فرنسا، وأننا كنا نخدم لمصلحة موسكو، وأنّ وراءنا الأممية الشيوعية، وأنّ النازية الجديدة هي التي تمولنا»[38]، لتقف السُلطة ضدّه (الأمن / الحزب)، مُستعملة كافة الطُرق لكسر إضرابه، مُصدراً بعدها الحاج المكّي لقرارات ألحَّ على تطبيقها فوراً، بعد أن طلب من خادمه المُطيع عكيكة قراءتها بصوت مسموع، أمام العمال: «حفاظا على المصلحة العُليا للمدينة والعمال، ومراعاة لتنظيف البحر من الحشرات الحمراء المؤذية والهالكة للزرع والضرع، صدر ما يلي:

- فصلُ قدور الكومنيست لتلاعبه بمصائر العمال، ولمواقفه المعادية للمصلحة الوطنية.
- ترقية فاطمي الرَّفادْ، لاستماتته في تشتييت صفوف المغرضين سيحفظ له التاريخ والوطن والدين الحنيف والشهداء، جُهدُه العظيم هذا لخدمة الأمة.
- بالمقابل سيتم طرد كلّ من تسبّب في الشغب، وهم يعرفون أنفسهم وعلى رأسهم رجال النقابة المزعومة.

تحيا الجزائر، والمجد والخلود لشهدائنا الأبرار»[39]، لنلاحظ بعدها مباشرة أنّ حالة رشيد النفسية (كممثل وناطق باسم عمال الميناء) قبل النكسة والفشل تميزت بالفاعلية والنشاط لإحداث التغيير (الدفاع عن حقوق العمال)، بمبدأ هو بمثابة عقد ائتماني، فرضه على نفسه أولاً، وعلى من حوله (عمال الميناء) ثانيا، لوصوله إلى مرحلة أدرك فيها وجوب شلّ الميناء بإضراب لتحقيق المطالب المشروعة، وإحداث التغيير، غير أنّ سعيهُ الحثيثَ لتحريك الفاعل الجماعي (عمال الميناء)، وتأسُّسُهُ كذاتٍ مُحرّكة،

مارستِ الضغطَ على مسؤولي الميناء (الحاج المكّي) = السلطة القهرية / الاستغلالية وحمَلتْهُمْ على تأسيس برنامج سردي ضديد، ينهض أساسا على تقويض الإضراب ومعاقبة المتسببين فيه، يقول رشيد مخاطبا مسؤول الميناء ومالك قوارب الصيد، وكلّهُ إصرار وطموح: «يا سيدي الحاج المكّي، النقابة ليست ضدك ولكنها ضد من يسرق حقنا في الحياة، ويمكنها أن تحمي قواربك وحيطان مؤسستك من الهلاك الذي يحيق بها، إذا تفهّمت مطالبنا»[40]، لكن بعد النكسة ستتغيّرُ حالته النفسية جذريا، وهذا واضح في كلامه: «عادت من جديد حكاية الغول البشري، الذي سيأتي على الأخضر واليابس، ودخل الصقيع من جديد إلى البيوت، واستقرّ بالقلوب المتعبة، من كثرة الانتظار وانسحب الحُلم مُخلفا وراءه فراغا يشبه الفراغ الذي يُخلفه الموت في الكائنات الحية لقد استعاد الحاج ميكي كلّ قواربه، ووجد الكثير من البحارة أنفسهم مرميين على أرصفة الميناء، البعض قبل باللعبة، فأحنى رأسه وعاد إلى عمله بينما ركب البعض الآخر رأسه حتى النهاية، وبدأ في البحث عن عمل آخر عندما يُسأل العائدون، يُجيبون بصوت واحد:

–يا خويا واش نديرو؟ تحبني أنطح برأسي حيط الصم؟ معهم الدولة والحزب والبوليس ورجال المطافئ والعسكر، واش تحبوا أكثر من هذا؟»[41]، فعلى الصعيد السردي هنا تتّضحُ جليا البنية الجدلية، ممثلة في: المجتمع / السلطة، مُساهمةً في: تشكيل المواجهة / تقويض المواجهة، لينجح رشيد مؤقتا في تعبئة الرأي العام كفاعل جماعي، ضد سلطة مسؤولي الميناء، ومن الواضح أنّ اتخاذ قرار المواجهة، وتنفيذ الحركة الاحتجاجية ميدانيا (التحريك)، مرهون في وجوده بمجموعة من الشروط التي دخلت في تشكيل أهليته (الصفات القيادية، والقدرة على الإقناع)، كونه أسّس نفسه فاعلا في برنامج التغيير، لإدراكه المطلق كنقابي الشرخ الكبير بين المجتمع (عمال الميناء)، والسلطة (مسؤولوا الميناء، وأرباب العمل)، لتكون الحركة الاحتجاجية الأولى، بعد امتلاك عمال الميناء الرغبة في التغيير، كحلٍّ وحيد، لإسماع أصواتهم للمسؤولين، وثورتُهم هنا شَكّلت "صورة أكثر تعقيدا ما دام يعني في نفس الوقت ما يسمى بالذات المضادة"[42] الحاج المكي وأعوانُه، ليتمظهر وجوب القيام بالفعل (الاحتجاج بالإضراب)، والرغبة في التغيير (افتكاكُ الحقوقِ) جليا لدى هؤلاء العُمّال، لكن بشكل مؤقّتٍ، بسببِ عدم اقتناعهم بالعقد الائتماني* الذي اقترحه عليهم مسؤول الميناء الحاج المكّي، منذ البداية:

المرسل ← الرسالة ← مرسَل إليه.

الحاج المكّي ← إقناعُ ممثِّل العمال لكسرِ الإضراب ← رشيد.

أمر فيه خدعة ← كشفُ الخدعةِ، ورفضُ قَبولِ العرضِ.

مُعلنا بعدها الحاج المكّي (السلطة القهرية)، بعد فشل مسعاه، لعقد إجباري** ألزَم به عمال الميناء، لإنجاح مشروعه السردي الضديد المُؤسّس على أهلية القوة والنفوذ (السلطة القهرية):

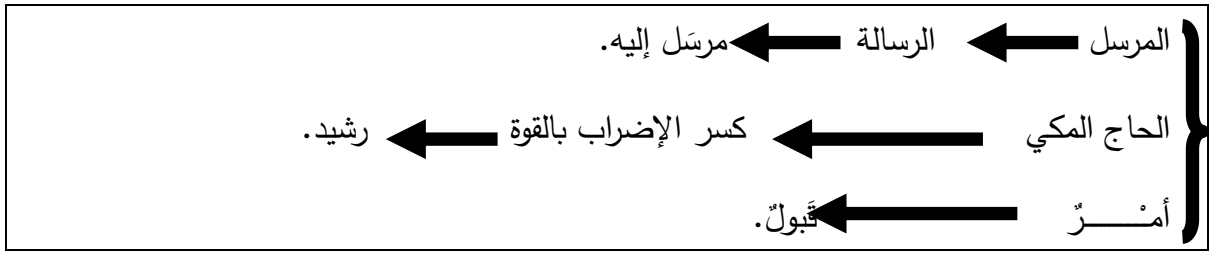

نتيجتُهُ قَلبتِ الوضعَ من حالة التوازن إلى اللا توازن بالنسبة لبرنامج رشيد السردي (مُمثّل عمال الميناء)، التي أثّرت فيه سلبًا، ومن حالة اللا توازن إلى التوازن بالنسبة لبرنامج الحاج المكّي السردي الضديد (مالك قوارب الصيد) التي أثّرت فيه إيجابا:

1- رشيد = الفاعل المُنفّذ: [(فا ٨ مو) ⟵ (فا ٧ مو)].

2- الحاج المكّي = الفاعل المضاد: [(فا ٧ مو) ⟵ (فا ٨ مو)].

فا = الفاعل / مو = الموضوع.

ليتقوّض مشروع رشيد السردي، وينتصر مشروع الحاج المكّي الضديد.

ومنه فالإستراتيجية السردية هنا -بتنوع ملفوظاتها بين الاتصال والانفصال مع موضوع القيمة (الرغبة)، الذي ساهم في خلقهِ صِراعٌ دائرٌ بين ثنائيات: المجتمع / السلطة، الفقر / الغنى، الظلم / العدل- تستندُ إلى النحو السردي La syntaxe Narrative، لنستخِلصُ معه المكون السردي في الخُطاطة الآتية:

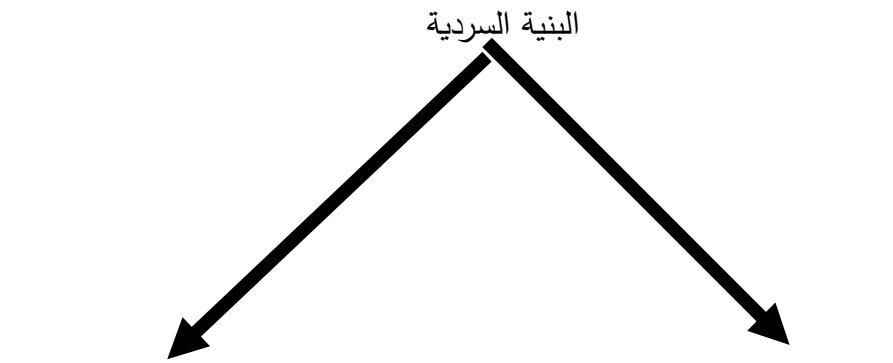

الوضعية 1	الوضعية 2	الوضعية 3		الوضعية 1
– وضعُ رشيد المزري في الميناء، جعله يقرّرُ تنظيم احتجاج باسم النقابة.	– فضُّ الاحتجاج باستخدام القوة العمومية وتقويض مشروعه التغييري.	–خيبة الأمل والاستسلام للأمر الواقع.		–بالنسبة لرشيد تجسّد عالمه المتوازن عندما ثار في وجه الاستغلال وقال كلمته.

فاستمرار التحول من حالة إلى أخرى (اتصال بموضوع القيمة / نجاح الإضراب، ثمّ انفصال مع موضوع القيمة / فشل الإضراب)، بواسطة فعل التحريك، المُتعلّق بفعل الفعل Faire Faire (تعبئة العمال وتهيئتهم لدخول حركة احتجاجية)، ارتكز على فاعل (رشيد بصفته متحدثا باسم العمال، تحت لواء النقابة)، يقوم بوضع العلاقة بينه وبين موضوع الرغبة في حالة احتمال مُحافظ عليها كإمكانية للاتصال، ويطلق على هذا الفعل صفة الاحتمالية Virtualisation، التي تتحول في الأخير إلى صفة تحقُّقٍ: (الإنجاز= فشل الإضراب) و(الجزاء= الطرد من العمل) فعلاقة الرغبة إذن بين الذات (رشيد) والموضوع (تحقيق مطالب العمال) تمرُّ عبر ملفوظ الحالة الذي يجسّد الاتصال أو الانفصال، كما تمر عبر ملفوظ التحول (الإنجاز) الذي يجسد تحولا اتصاليا أو انفصاليا.

شكل توضيحي للفعل الإقناعي:

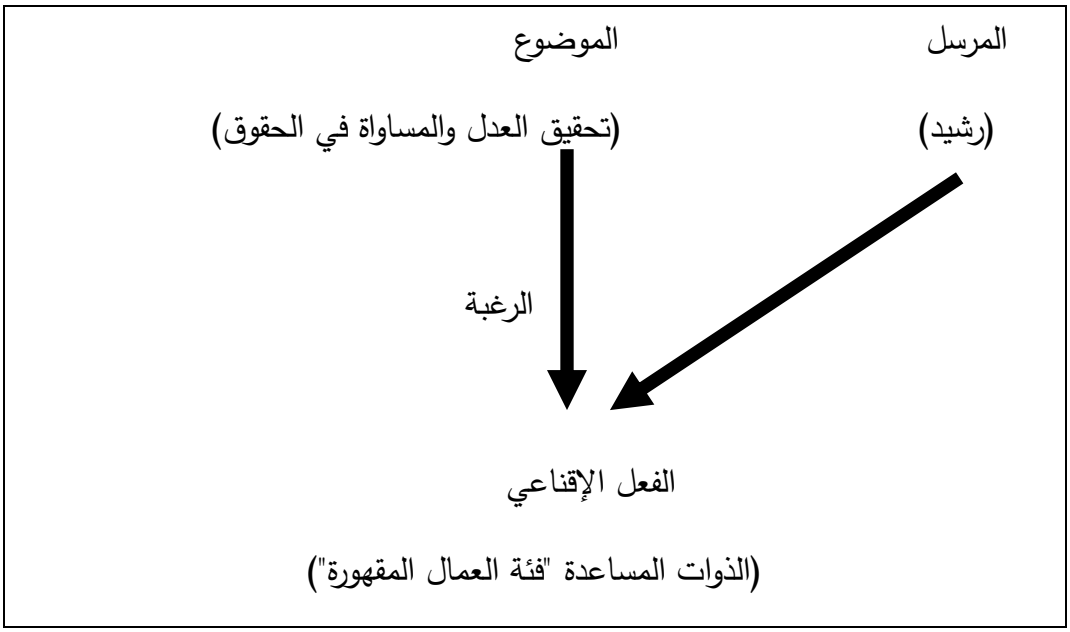

لذا سيحاول رشيد كفاعل منفذ Sujet Opérateur، فرض سيطرته في مكان عمله الجديد بباريس (قطاع السكك الحديد)، بعد تأسيس برنامجه السردي الثاني الخاص به، مستفيدا من أهليته السابقة (امتلاكُ خبرةٍ نقابية يُدافعُ بها عن حقوق العمال)، وذلك بحشده لأكبر عدد ممكن من الذوات المساعدة لإنجاح مشروعه، رغم تحذيرات وتنبيهات صديقه كريمو من عواقب قراراته ومواقفه الوخيمة، خاصة مع تنامي العنصرية في باريس (اليمين المُتطرف) في ظروف الأزمة، قائلا له: «أعرفُ أنّ قلبك حار، ولكن يجب عليك أن تحذر فرنسا نفُسها تعيشُ وضعًا خاصًا، وقد تكاثرت العنصرية ... على الأقلّ احذر أثناء المظاهرات، حفاظا عليك وعليه [يقصد صديقه الفرنسي جاك الشومينو]، ابتعد عن الصفوف الأولى، لأنك تضع نفسك في الواجهة ... لست مُضطرا لأن تموت أصلا، أنت هنا من أجل العمل»[43]، ليردّ عليه رشيد وكله ثقة وقناعة: «أعرف هذا جيدا، لكن علاقتي بجاك هي علاقة أكثر من أخوية، منه تعلّمت كيف أدافع عن حقّي، أرأيت كيف يتحدثُ عن الفقراء، ثمّ إنه مثلنا في كلّ شيء»[44]، مُستغلا بذلك أهليته (خبرته النقابية، وعزيمته)، لإنجاح وتحقيق برنامجه السردي المُحيّنِ (مُمكنُ التّحقُّقِ)، وهذا يتطلّبُ توافر صيغٍ أربعٍ: الرغبة Vouloir (توفير ظروف عمل كريمة)، الوجوب Devoir (ضرورة الضغط على السلطات المعنية وأرباب العمل، عن طريق حركة احتجاجية، وإضراب يشل القطاع تحت لواء النقابة العامة للعمال C G T، كورقة ضغط)، الاستطاعة Pouvoir (حشد وإقناع أكبر عددٍ ممكن من المساعدين، كعمال السكك الحديد المُنضوون تحت لواء النقابة)، معرفة الفعل Savoir Faire (الانطلاق من إرادة المعرفة التي تُجسّدها القناعة التامة، وإدراك العواقب وتحمُّلُ المسوؤلية).

هذه العناصر الأربعة تَحَدُّدُها لا يكون انطلاقا من البرنامج السردي المرتبط بملفوظ فعل، بل تتحدّدُ من خلال ملفوظات الحالة، كقول رشيد مخاطبا صديقة وزميل عمله الفرنسي: «أليوشا، نملك

وسائل إخضاعهم في النهاية، أن نوقف حركة النقل والسفر !»[45]، والسبب هو انعدام الحقوق وكثرة المخاطر التي يتعرض لها يوميا عمال السكك الحديدية (عدم وجود تأمين ضد المخاطر وحوادث العمل)، وعدم تحرّك الدولة رغم بساطة وقانونية المطالب:

- ف (فا1) ⟵ [(فا2 ٧ مو) ⟵ (فا2 ٨ مو)].
- فا1 = الفاعل الإجرائي (عمالُ السكك الحديدية المُحتجين).
- فا2 = فاعل حالة (رشيد، جاك الشومينو، أليوشا).

والملاحظ أن البرنامج السردي المُحيّن هنا بدأ بحالة انفصال عن موضوع القيمة (انعدام الحقوق، والعمل في ظروف مزرية)، لقولِ رشيد وهو ناقمٌ: «الله يلعن أبوه عمل، يقتل ليلا ويذل صاحبه نهارا، هذه الآلات الساحقة من المفروض أن تُغذينا على الأقل بالقسط الذي تأكله منا، لكن يبدو أنها تمتصنا دفعة واحدة، لترمينا في آخر الليل من أعالي الشرفات نحو مخازن القمامة ... كلّ يوم تضيق الدنيا قليلا، ظروف العمل أصبحت لا تُطاق، لكني متأكد من أن الصبر والمثابرة يهزمان اليأس»[46]، لينتقل إلى حالة اتصال (بعد حشدِ العمال بإقناعهم، وحثِّهم على ضرورة الإضراب، وشلِّ حركة القطارات بالاحتجاج)، فوضْعُهُ المُتحوّلِ هذا ناتجٌ عن تجربة واقعية عاشها، ومن خلالها أدرك بوعي حالهُ، وحالَ العمالِ الهامشيّ (أجانبا أو فرنسيين)، كوصفه لظروف العمل المزرية، وضحاياه قائلا: «لا نعرفُ من باريس إلاّ هذه الرافعات التي تحوم على رؤوسنا بكتلتها الحديدية الحمراء، ولا شيء غير ذلك»[47]، لينقل لنا بعدها مشهدا حياّ لأحدِ ضحايا هذا العمل القاتل، في قوله:«كانت يداه تضغطان على ملقط مهترئ يحوم على رأسه باستمرار، في حركات رتيبة ومخيفة، مهدّدٍ في كل اللحظات بالسقوط، في يوم من الأيام ما كان مجرد تخمين من طرفي أصبح حقيقة موصوفة، فقد سقطت على رأس الجيلالي الكتلة الحديدية التي كانت تحركها الرافعة ... فقد تمّ جمع لحمه وعظامه الملتصقة بالأرضية الصُلبة قطعة قطعة، لوضعها في التابوت، وإرسالها إلى بلدته في أقاصي الأوراس، لم يكن الجيلالي إلاّ رقما سرعان ما تمّ تعويضه بأرقام غيره، من يومها أغمضت عيني، ورحت أبحث عن مكان آخر للعمل ...»[48]، لنصل إلى أنّ جهَة القدرةِ على الفعل (النقابة العامة للعمال C G T) أعطت الضوء الأخضر لرشيد وجاك الشومينو وأليوشا، من أجل إتمام المُواجهة، واختيار اللحظة المناسبة لإعلان الحركة الاحتجاجية، لتقع عليهم عديد الملفوظات السردية وقعًا إيجابيا: «أليوشا، نملك وسائلَ إخضاعِهم في النهاية، أن نوقف حركة النقل والسفر !»[49] / «المخاطر التي نتعرض لها يوميا في السكك الحديدية لا تُعدّ ولا تحصى»[50] / «نطالب بحقّ تحسين الحياة، لا أكثر الموت في زماننا لم يعد يخيف أحدا»[51] / «ألا يموتون يوميا تحت الرافعات العملاقة، وفي السكك الحديدية»[52] / «الكُلّ يتوعّد، وعمال السكك الحديدية يُلحون على حقهم»[53] / «كان الخوف شارات متربصة على

ظهور الذين بدأت عيونهم تتجمّرُ وتزداد حمرة، الأحاديث المُعلنة عن الإضراب الكلي لم تتوقف منذ أكثر من شهر، ولكنها منذ أيام زادت حدّة وشيوعا»[54] / «الكُلّ مشبوه، يحمل على عاتقه سنين القهر والغبن، يبدو أنّ المدينة نسيت أن تغسل وجهها في هذا الصباح من الأدخنة، أو أنها قصدت ذلك لكي يرى الجميع شكلها الذي خسر ألقه، تحملُ في أحشائها تنينا مزركشا يتهيأ لحرق كل شيء، حتى نفسه وما يحيط به»[55]، لتستغلّ معها الذاتُ المُنتفضةُ (عمال السكك الحديدية) الفرصةَ لتنفيذ مشروعها بامتلاكها الرغبة في التغيير نحو الأفضل (الاحتجاج بالإضراب وشلِّ القطاع كحل وحيد وأخير يُسمعُ أصواتهم للحكومة والسلطات المعنية)، وإدراكها للشّرخِ الكبير بينها وبين السلطة.

لتُبطلَ السلطة القهرية (مسؤولوا السكك الحديدية / الشرطة / السيارات الكبيرة ذات الخراطيم الطويلة) الحركةَ الاحتجاجيةَ باستخدامِ القوة العمومية، مُعطّلين بذلك قُدراتهم الدفاعية، لقول السارد واصفا الموقف: «كانت المُظاهرة ضخمة، أُغلقت على إثرها المدينة التي طُوّقتْ من كل الجهات، وسُدّت المعابر الكبرى، كانت الصرخات تأتي من كلّ الجهات، الشرطة وسيارات الإسعاف والسيارات الكبيرة ذات الخراطيم الطويلة، كلها كانت تسير في ركب المظاهرة، أو تغلق عليها بعض الشوارع والممرات المؤدية إلى الأمكنة الرسمية، الاصطدام الأوّل لم يكن عنيفا، فقد حدث ليس بعيدا عن وسط المدينة ... القنابل المسيلة للدموع الأولى لم تسقط بعيدة عن المتظاهرين الأوائل، كان الجميع يصيحون بصوت واحد ... تمتم رشيد وهو يشُدُّ على ذراع جاك بقوة، على الرغم من القنابل المسيلة للدموع التي ملأت عينيه بالدموع وأحرقت صدره ...»[56]، لينجح مدير إدارة السكك الحديدية (السلطة القهرية) في فضّ الحركة الاحتجاجية، وتشتيت صفوف المحتجين بِشلِّ قدرة الفاعل الجماعي (رشيد، جاك الشومينو، أليوشا) على كلّ محاولة تهدف إلى قلب نظام قطاعه، ليكون لها أثرا فعالا في إبطال مفعول تحريك عمال السكك الحديدية المحتجين، لتبدأ معالمُ برنامج سردي ضديد في الاتضاح أكثر، بدأ بعقدٍ ائتماني، حاولتْ من خلالهِ السلطة القهرية كسرَ الإضراب بالتفاوض، لقول جاك الشومينو: «وحين خرج مدير إدارة السكك الحديدية، وأطلّ برأسه من الأعالي محاطا بالشرطة، قال:

- نريد أن نتفاوض، الطريق الذي تسيرون فيه مسدود.
- لا نريد تفاوضا، نريد اعترافنا بحقوقنا.

ردّ جاك بوصفه مُمثّلا للعمال،

-نعرف من يقودكم، أنتم تحت وصاية الذين يريدون تخريب البلاد، وتبديد خيراتها»[57]، ليفشل التفاوض، ويتم الانتقال إلى عقد إجباري أرغم المحتجين على التشتُّتِ باستخدام أسلوب الفضّ القوي، لامتلاكِ القدرة على الأداء لإعادة الأوضاع كما كانت، كقول أحد المحتجين صارخا:

«Ne lacher pas prise, restez unis. Ils veulent nous faire peur, montrons leur qu´on ne cède jamais à l´intimidation. Pas de casse, notre pacifisme est notre force*»[58].

-«قال صوت اخترق الضباب والصراخ وضربات العصي التي كانت تنهال على العمال ... ارتبك التماسك الذي أبداه العمال في البداية، قبل أن يتشتّت ثمّ يبدأ كل واحد ركضه في مختلف الاتجاهات، وسط غلالة الضباب الكثيف والصراخ والدموع، عندما تفككت أدخنة القنابل كانت الجموع قد تحولت إلى مجموعات صغيرة، ولم يكن هناك لا جاك ولا أليوشا ولا رشيد ولا النقابيون الآخرون، لا شيء يُسمع وسط الفراغ الموحش إلاّ بعض الصرخات المعزولة هنا وهناك، وسيارات الإسعاف التي كانت تمرّ مسرعة كالبرق، وأضواء المدينة التي اشتعلت فبدت كبقايا ألسنة لهب متداخلة، انطفأ كل شيء بسرعة، وحلّ الصمت والخيبة»[59]، لينجح بذلك البرنامج السردي الضديد المؤسَّسِ على إرادة القوة، مُقوّضًا معه آمال وطموحات المُحتجين، اللذين أُعتُقل اغلبهم واقتيدوا إلى مخفر الشرطة، كإجراء تأديبي، يقول رشيد كاشفا ما جرى داخل مخفر الشرطة: «قال لي كبيرهم الذي أدخلوني عليه، لم تكن تبدو على وجهه علامات الحقد: ((أنت تعرف أنّ وضعك حساس جدا، وعليك أن تتنبّه لهذا التفصيل، لأنه قادر أن يحرق مستقبلك بكامله)).

-سألته وأنا أحاول أن أعرف سرّ هذه اللغة الخاصة بي، خصوصا بعدما أطلق سراح جاك وأليوشا اللذين ظلاّ ينتظراني خارج المخفر:

-ولماذا أنا بالضبط؟ وضعي وضعَ بقية رفاقي، لم نكسر ممتلكات الدولة، لم نحرق شيئا، طالبنا بحقوق شرعية.

-ردّ عليّ وهو على ثقة عالية:

-أنت مثقف ولست مهاجرا عاديا، قل لي هل تفعل الشيء نفسه في بلدك؟

-ربما لا، قد لا أُقدمُ على الانتحار بهذه السهولة، ولكني إذا وجدت قوة عمالية بهذا الوعي بالنسبة لحقوقها، سأفعل.

-طبعا ستفعل، ولكنك قد تُقتل»[60]، لينهار في الأخير الفاعل الجماعي (رشيد) لأسباب منها: ميزان القوة / القدرة السُلطوية، التي جاءت في غير صالحه بالإضافة إلى أهلية الذات المضادة في برمجة ردة الفعل المباشرة تجاه الاحتجاج استخدام القوة)، لتكونَ نتائجُهُ محسومة مُسبقا للسلطة، لتَهزِم القوة المادية (إرادة القوة) = (مدير السكك الحديدية) / القوة العقلية (إرادة المعرفة) = (عمال السكك الحديدة المحتجين / رشيد، جاك الشومينو، أليُوشا ...).

هذا التشكيل الذي عَملَ على تجلية المكون السردي، قدّم لنا مشاهدا بدأت بحالة من الانغلاق والانسداد، لتتوسع تدريجيا، كونها "من ضمن التجليات النصيّة الدالة على الثبات مسألة انفجار الذوات وانزلاقها من وضع إلى آخر"[61]، لنجد الحالة الأولى مرتبطة بتمزق الوشائج التي تحكم الراعي (السلطة الحاكمة في الجزائر) بالرعية (المجتمع / الشعب المغلوب على أمره، الفئة العمالية مسلوبة الحقوق) = التحريك (القيام بحركة احتجاجية متبوعة بإضراب) = الأهلية (التسلحُ بإرادة المعرفة / استثمار التجربة النقابية / الوعي بالحقوق المشروعة) = الإنجاز (الخروج بعد حشد العمال في مظاهرات) = الجزاء (فشلُ الإضرابِ / قرارُ الهجرةِ نحو فرنسا).

في حين الحالة الثانية شبيهة بالحالة الأولى، كونها باعثة على الاضطراب كذلك، لارتباطها بتمزق الوشائج التي تحكم الراعي (السلطة الحاكمة في فرنسا) بالرعية (المجتمع / الفئة العُمالية مسلوبةُ الحقوق ممثّلة في قطاع السكك الحديدية) = التحريك (القيام بحركة احتجاجية متبوعة بإضراب)) = الأهلية (التسلحُ بإرادة المعرفة / استثمار التجربة النقابية / الوعي بالحقوق المشروعة) = الإنجاز (الخروج بعد حشد العمال في مظاهرات) = الجزاء (فشل الإضراب / موت الفاعل الجماعي رشيد بطريقة مأساوية)، ليكون مَبعثًا لخلقِ جوٍّ من الموتِ، لقول كريم وكلّه حزن على فراق صديقه رشيد المقتول بسبب مواقفه: «كنت مهزوما إلى أعمق نقطة فيّ، دم رشيد كان يغلي في قلبي، أُحسُّ بأن بأنّ شيئا قد انطفأ ومات، وفي دورة الساعات المُتتالية كانت الحرائق تنشب في ما تبقى من حياتي، فجأة شعرت كأني خسرت كلّ شيء حتى الرغبة في مدينة عشقتها وأحببتها بجنون، أحسّ بالاحتراق، كانت الأجساد الحيّة تُشوى على عقارب الوقت، تحملُ في عذاباتها أنين اللحظة، وحبّ الوطن الغائب لا شيء يُنبئ بالخير»[62].

إذا تأملنا الملفوظات السردية السابقة، سنجدها متضمّنة بين طياتها لبرنامجين سرديين رئيسيين: الأولُ تبناه عمال الميناء في الجزائر، وتحدّد في وجوب إحداث التغيير (ذو طابع إلزامي)، للحصول على الحقوق التي ستحافظ ولو قليلا على كرامة الإنسان في وطن غنيّ، لكنه مسروق والثاني تبناه عُمّال السكك الحديد في فرنسا، تحدّد في وجوب إحداث التغيير (ذو طابع إلزامي)، للحصول على الحقوق التي ستحافظ ولو قليلا على كرامتهم، في وطن يتغنى بالديمقراطية وحقوق الإنسان.

الخاتمة:

بناءً عليهِ يمكنُ ملاحظةُ التداخل الحاصل في الرواية بين بنية العواملِ وبنية الممثلين، وهو تداخلٌ نشأت معه الشخصيات الفاعلة بوصفها تشكلاً خطابيا برزَ على مستوى التجلي، وبما أنّ المضامين والمسارات التصويرية المؤسِّسة لهذه التشكلات التركيبية والخطابية على مستوى مكونِ السردِ، تخضعُ في تحديدها لشروطِ السياقِ التاريخي ولرؤى المجموعات الثقافية التي تتداولها، ينبغي النظر من

خلالها إلى الشخصياتِ كبناءٍ ثقافي يؤسّسُ –من خلالِ خُضوعهِ للإغامات نفسها– لخطاب نوعي تعودُ فيهِ الوظائفُ والمواصفاتُ التي تطفو على مستوى بنية السطحِ إلى قيمٍ مُمثلةٍ للعُمقِ الإنساني.

وبهذا يكون الوضع النهائي بمثابة مُحصّلة للعملية التحويلية المُنتجة للوضع الختامي، بواسطة أفعال الشخصيات المُضادة، التي أسهمت بشكل كبير في إقرار وضع نهائي أدى إلى تقويض كلّ محاولة للتغيير، قامت بها فئة مقهورة تنتمي إلى مجتمعٍ مسلوب الحقوقِ، ليكونَ الإنجازُ حليفَ السلطةِ القهريةِ.

الهوامش:

1. محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص 35.
2. السعيد بوطاجين: الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000، ص 19 .
3. أحسن مزدور: مقاربة سيميائية في قراءة الشعر والرواية، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2005، ص 10 .
4. تزفيتان تودوروف: ميخائيل باختين (المبدأ الحواري)، تر: فخري صلاح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ط2، ص 127 .
5. محمد مفتاح: التشابه والاختلاف (نحو منهاجية شمولية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 1996، ص 35 .
6. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، لبنان، 2010، ط1، ص 29 .
7. المصدر نفسه، ص 31 .
8. عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2003، ص 250 .
9. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 30 .
10. عبد الله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب (محاضرات)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص 428 .
11. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 61 .
12. المصدر نفسه، ص 35 .
13. محمد أحمد المسعودي: «الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية»، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، المملكة العربية السعودية، ج 53، مج 14، سبتمبر 2004، ص 577 .
14. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 34 .
15. محمد أحمد المسعودي: «الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية»، ص 577 .
16. المرجع نفسه، ص 577 .
17. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص ص 64 – 65 .
18. عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، ص 250 .
19. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 71 .

20. صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2002، ص 111 .
21. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 55 .
22. المصدر نفسه، ص 55 .
23. صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، ص 226 .
24. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 54 .
25. المصدر نفسه، ص 55 .
26. المصدر نفسه، ص ص 34-35 .
27. المصدر نفسه، ص 35 .
28. المصدر نفسه، ص 59 .
29. عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، ص 250 .
30. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص ص 84-85 .
31. المصدر نفسه، ص 85 .
32. المصدر نفسه، ص 28 .
33. المصدر نفسه، ص 31 .

* البرنامج السردي الأول الذي سعى رشيد -كنقابي مدافع عن حقوق عمال الميناء- إلى تحقيقه، بدأ عندما أعلن إضرابه العام هو وعمال الميناء تحت لواء النقابة العمالية، والسبب تقاسم أصحاب المصالح والنفوذ للبلاد، كأنموذج الحاج المكّي الذي امتلك كلّ قوارب الصيد،وكانت أنانيته مدقعة، الذي لم يعجبه الاحتجاج قائلا: «وحق ربي لن يبق في بحري شيوعي واحد، سأقطع رؤوسهم واحدا واحدا، تحبوا تهبلوني يا أولاد الحرام؟ ! أنت، وأنت، وأنت مطرودون، ما نحبش نشوف الفاتشا إنتاعكم ابتداء من اليوم» الرواية، ص61، ليتقوّض مشروعه بعد فضّ الاعتصام، باستخدام القوة وتشتُّتُ العمال، وإحالة أغلبهم على البطالة بعد إصدار قرارات الفصل الجائرة بحقهم (استخدام الحاج المكّي لبرنامج سردي ضديد، معتمدا فيه على السلطة القهرية).

34. المصدر نفسه، ص 67 .
35. محمد أحمد المسعودي: «الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية»، ص 588 .
36. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 64 .
37. المصدر نفسه، ص 63 .
38. المصدر نفسه، ص 64 .
39. المصدر نفسه، ص 65 .
40. المصدر نفسه، ص 61 .
41. المصدر نفسه، ص 66 .
42. سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 53 .

* في العقد الائتماني يقوم المرسل بفعل إقناعي، حتى وإن كان هذا الفعل كاذبا، وقد يقبل المرسل إليه رسالة المُرسَلِ، ولا يشك في صحتها، وقد يكشف حيلته.

** في العقد الإجباري يُوجّهُ المرسلُ أمرا إلى المرسل إليه، يُرغمهُ فيه بقَبول الأمر.

43. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص ص 116 – 117 .

44. المصدر نفسه، ص 117 .
45. المصدر نفسه، ص 120 .
46. المصدر نفسه، ص ص132 – 133.
47. المصدر نفسه، ص 136 .
48. المصدر نفسه، ص 136 .
49. المصدر نفسه، ص 120 .
50. المصدر نفسه، ص 120 .
51. المصدر نفسه، ص 120 .
52. المصدر نفسه، ص 121 .
53. المصدر نفسه، ص 119 .
54. المصدر نفسه، ص 119 .
55. المصدر نفسه، ص 119 .
56. المصدر نفسه، ص ص 123 –125 .
57. المصدر نفسه، ص ص 125 –126 .

* ابقوا متكاتفين ولا تتفرقوا، يريدون تخويفنا لنُظهر لهم بأننا لا نستسلم للخوف، لا تتكسروا، نزعتُنا السلمية هي قوتنا.

58. المصدر نفسه، ص 126.
59. المصدر نفسه، ص ص 126 –127 .
60. المصدر نفسه، ص 134 .
61. السعيد بوطاجين: السرد ووهم المرجع (مقاربات في النصّ الجزائري الحديث)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص 168 .
62. واسيني الأعرج: جسدُ الحرائق (نثار الأجساد المحروقة)، ص 177 .